رسالة القاهرة .. من بغداد والموصل

بقلم سامي خشبة

في عام واحد زرت بغداد وزرت دمشق . حلم اللقاء بالمدن البعيدة التي اكتشف جيلنا انتماءه وذاته حينما اكتشف حقيقة جذوره فيها وجذورها فيه .. يتحقق . لم يكن اكتشافنا في قاهرة ١٩٥٦ انفعالا ، ولم يكن مجرد هزة عاطفية . لم يكن استعارة شعرية ، ولم يكن تلبية لنداء خطابي ، او ترديدا لاهازيج المظاهرات .. رغم ان طريق جيلنا الى هذا الاكتشاف في قاهرة ذروة الحركة الوطنية ذلك العام ، كان لا بد ان يمر بخطوات الاستعارات الشعرية ، والنداءات الخطابية وترديد الاهازيج .

في السادسة من مساء التاسع والعشرين من اكتوبر عام ١٩٥٦ ، كنا في القاعة رقم «٤٣» المخصصة لدراسات قسم الصحافة في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، نتلقى محاضرة الادب الانكليزي . كان عبد الناصر قد أمم القناة في يوليو ، وكنا قد نجحنا في امتحان اتمام الدراسة الثانوية . واستقبلنا عبدالناصر العائد من الاسكندرية بعد تأميم القناة ، وكنا في ميدان محطة مصر اكثر من مليوني شاب ، كلهم في سن حمل السلاح والتطلع الى التجديد والحرية ... نمسك بعيوننا حلم الحرية وهو يتحقق رغم مخاوف الآباء . وفي تلك الساعة من مساء ذلك اليوم دوت صفارة الانذار . وفزعت فتاة ، وأسقطت المسند الخشبي الذي تضع عليه كتبها في المدرج ، وبدأ العدوان الثلاثي على مصر . واكتشف جيلنا في مدى ثلاثة ايام عمق انتمائه العربي . أضرب عمال البترول هنا في الموصل ، حيث اكتب الآن في الواحدة والنصف من صباح الثاني عشر من ديسمبر عام ١٩٧١ . وفجر عمال درعا واللاذقية خطوط البترول . وصرخ طلبة بيروت طالبين السلاح لمساندة مصر . وكانت دمشق قد كونت حكومة جديدة وطنية وقومية لتساند مصر في المعركة المقبلة . وقذف نوري السعيد بعدة مئات من عمال بغداد وطلبتها في السجون وأعلن الاحكام العرفية ، وسمح للطائرات البريطانية بضرب مصر من قواعده ، ولم يكن يعرف انه يعجل بهذا العمل من نهايته على يد شعب العراق العربي . وشدد ثوار الجزائر هجماتهم على الجيش الفرنسي ليستنزفوا اكبر قدر من طاقته فلا توجه منها فرنسا المزيد الى مصر . وفي معسكر « استاد الجامعة » في الجيزة كنا نتهيأ ـ نحن متطوعي الحرس الوطني الجامعي ـ للسفر الى المواقع المعينة لنا ، حينما شدت أسماعنا الى اهازيج لم نكن قد سمعناها من قبل :

حنا الربعة العربية ، ع الناعم والناعمتين

* * *

عبد الناصر يا جمال هات سلاح وخود رجال

* * *

جينا يا مصر جيناكي ... جيناكي نناضل وياكي
ونحقق وحدتنا معاكي ...

* * *

ووجدنا انفسنا ننجذب الى المجموعة من متطوعي العراق وسوريا والاردن ولبنان وفلسطين ، من طلبة جامعة القاهرة ، الذين كانوا ينتظرون دورهم في تسلم السلاح بترديد اهازيجهم . ما زلت اذكر بعضهم : مسلم وابو ميزر وبشار وزهير وغسان ونزار وممدوح ومحمد خير ... والعجيب انه كانت معهم بنات .. فاطمة وسعاد وليلى ومها ... شعرنا بالخجل حين اكتشفنا الفتيات . زال خجلنا حين شعرنا بجدية غنائهن . تحمسنا بعض الشيء فشاركنا بالتصفيق . بعد دقائق كنا نغني . وكان احدهم قد خرج بآول بندقية « بشحمها » وشرع يرقص بها قبل ان نبدأ معا في تنظيف السلاح . وفي السيارة بدأ النقاش .. في التاريخ !

منذ ذلك الحين ، لم نتوقف عن المسيرة التي خلقت لكل منا مصيره الفردي ، ومنحتنا جميعا روح الجيل الذي نحمل شهادة ميلاده وبصمته على الحياة .

* * *

لم تكن مهمتنا هي المناقشة وحدها . كان عملنا الاساسي هو ان نصنع بعضنا البعض ، وان يصوغ كل منا روح الآخرين الذين يصوغون روحه وعقله في نفس الوقت . هذا الجيل لم يصنع مرة واحدة ، ولم يتخلق في دفعة واحدة دون استمرار . ذلك لانه كان قد قدر له ان يشهد اكثر من انتصار وان يتذوق اكثر من هزيمة ، وهو مع ذلك لم يكمل مسيرته بعد ولم يصل الى سمتها .

من القاهرة جاء معي شاعر وفنان تشكيلي وناقد من نفس الجيل : محمد عفيفي مطر واحمد مرسي وصبري حافظ . وفي الطريق الى الموصل التقينا برجاء النقاش وأحمد عبد المعطي حجازي . وكان عبد الوهاب البياتي قد سبقنا من القاهرة الى بغداد . كعادته وفي مكانه . يتقدم الجيل كله قليلا ثم ينتظره لكي يعود فيسبقه . فكانه يشق بمفرده طريقا يصعب ان تشقه الجماعة متكاملة : من بغداد هو ولكنه ليس من العراق وحده . عاش بجسده في مصر وفي لبنان . تجول في المغرب والجزائر وأقام في سوريا . هبط جنوب الجزيرة .. وها هو يعود لكي يصعد الى شمال العراق آتيا من القاهرة عن طريق بغداد .

* * *

حينما صافحت رجاء وحجازي في محطة الموصل كان لا بد ان استرجع تلك السنوات التي كتب فيها رجاء « أدب وعروبة وحرية » ، وان استعيد كل تلك اللحظة التي رأيت فيها احمد حجازي للمرة الاولى يلقي قصيدة عن سوريا ، يطوح برأسه ويشمخ كفارس : « يا ارض سورية .. يا حلم عينية .. » . كان لا بد وانا ارى هذا الجزء الحميم من قاهرة الانتماء العربي ، وكشف الذات القومية في مسيرة المعركة الوطنية الطويلة عبر مساحاتها في الوطن العربي كله ، كان لا بد وان أسترجع كل تلك السنوات بلحظاتها . نمونا في هذه الكتابات والقصائد نموا منح مصر حقها في جذورها مثلما منحها نمو الجيل الاول في القرن الماضي حقها في التجدد والعثور على مسيرتها الوطنية الخاصة . كان لا بد لهذا الجيل ان يدافع عن روح التجدد التي تخلى عنها روادها ، وان يدافع في نفس الوقت عن الجذور المكتشفة ، وان يؤكد حقه في التفكير والاعتقاد والفعل ، مدافعا بهذا عن معنى وجوده كجيل يواكب ويصنع المجرى الجديد لوجود مصر والقاهرة في المستقبل ، وهو يقوم بنفس اللحظة بازالة ركام الاكاذيب والزيف عن المجرى الحقيقي القديم . في السياسة ، وفي الايديولوجية ، في الفكر النقدي وفي النقد التطبيقي ، في

النظرة التاريخية وفي التقييم الجمالي ، في العمل اليومي وفي العمل العقلي الذي يحاول ان يتخلص من قيود الزمن ، في كل ساحة من ساحات وجوده كان على هذا الجيل ان يخترق حصار التجهيل والجذب الى الوراء والرؤى المشتتة والارهاب والدجل . كان من الطبيعي ان يبدأ من الاهازيج والرؤى الشعرية . وكان من الطبيعي ان يحدث ذلك في خضم السنوات التي تلت يوليو ١٩٥٢ ، وكان من الطبيعي ان يقف في اعوام ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ساعيا نحو « التكوين العقلي » الجديد ، مطالبا نفسه ومطالبا الواقع بالوضوح في الفكر والموقف ، بالالتزام في السياسة والعمل النضالي : مكتشفا ان تجدد الشعر مرتبط بتجدد الواقع كله وباعادة اكتشاف هويته . بان كسر قيود التخلف الذهني او تجمد القيم الفنية والجمالية انما يعني النضال ضد الرجعية السياسية والفكرية ، وضد الشوفينية والتعصب الاقليمي في وقت واحد ، وضد الاستغلال الاجنبي او المحلي وضد القهر واذلال الانسان ، مناضلا في نفس الوقت ضد مفاهيم او تصورات جغرافية او « بولي جغرافية » عن الشرق الاوسط ، او حضارة حوض البحر الابيض ، او « الحضارة » الاسيوية الافريقية .. الخ ، دون ان يتحول الى رؤية شوفينية مضادة تلغي الارتباط التاريخي والانساني بين الحضارة العربية وبين ما تبادل معها التاثير والتفاعل من حضارات او ثقافات ، مناضلا ايضا ضد مفهوم « الاحتراف » في العمل السياسي او الفكري او الفني ، الذي يؤدي الى وضع « المحترف » نفسه في خدمة المفاجآت او المواقف التكتيكية المؤقتة ، ويريد في نفس الوقت ان يحتل مقعد المخطط الاستراتيجي او المتحدث الاوحد بلسان هذا المخطط الوهمي .

كان على هذا الجيل ان يصنع كل هذا ، وما زال عليه ان يصنعه ، وكان عليه وما زال ان يصنع نفسه في آن واحد . وكان علي ان اتذكر الآلاف من اللحظات والكلمات والمواقف . وفي اول مرة انفردت فيها بحجازي سألته عن القصيدة التي سيلقيها في مهرجان ابي تمام في الموصل .

* * *

كان عنوانها : مرثية العمر الجميل .

ولكن القصيدة لم تكن ترثي عمرا جميلا فقط ، بقدر ما كانت تبشر بعمر آخر اكثر جمالا لانه اكثر وعيا واثرى بالمعرفة واقل استعدادا للانخداع ..

هذه آخر الارض ، لم يبق الا الفراق
سأسوي هنالك قبرا
وأجعل شاهده مزقة من لوائك
ثم اقول سلاما !
زمن الغزوات مضى ، والرفاق ،
ذهبوا ورجعنا يتامى .
هل سوى زهرتين أضمهما فوق قبرك
ثم امزق عن قدميّ الوثاق .
انني قد تبعتك من اول الحلم ،
من اول اليأس حتى نهايته
ووفيت الذماما
ورحلت وراءك من مستحيل ، الى مستحيل .

هكذا تبدأ قصيدة الشاعر الذي كان احد من حملوا القاهرة الى الموصل ، وحملوا معهم ملامح الجيل الذي اعطى القاهرة ملامحها، وكشف لها عن جذورها ، وحاول ان يشارك في صنع مستقبلها ... طوال عشرين عاما ... وها هو الشاعر يعلن ان حلمه ما زال كما هو .

انني أحلم الآن ، بيتي كان بغرناطة
بعت قيثارتي ، واشتريت طعاما
ورحلت الى بلد لست ادري اسمها
جعت فيها
وانضممت لطائفة الفقراء بها ،
واتخذت اماما ...

ولكنه يعرف ان هذا الحلم الذي لم يتحقق ، او لم يكتمل تحققه في عشرين عاما ، وعادت المسيرة الى حيث بدأت او تكاد ، يعرف ان هذا الحلم ما زال حلما جديرا بان يعيشه الشاعر من جديد. يلقي سلامه على التجسيد الخائب للحلم . يفارقه . ليواصل السير :

فوداعا هنا يا اميري
آن لي ان اعود لقيثارتي
وأواصل ملحمتي وعبوري
تلك غرناطة تختفي
ويلف الضباب مآذنها
وتغطي المياه سفائنها
وتعود الى قبرك الملكي بها
وأعود الى قدري ومصيري
من ترى يعرف الآن في أي ارض اموت
وفي اي ارض يكون نشوري
انني ضائع في البحار
ضائع بين تاريخي المستحيل وتاريخي المستعاد
حامل في دمي نكبتي
حامل خطاي وسقوطي
علني الآن اذكر صوتي القديم ...

انه لا يعي فقط بالحذر من المدعين الذين ضللوا المسيرة وساروا بغرناطة الى هزيمة جديدة بدلا من النصر الموعود . وانما يعي خطاه هو ، خطا جيله الذي يتحدث باسمه : سقوطه في احابيل النشوة ذات البريق الذي يعد بتحقق الحلم دون جدارة او قوة على تحقيقه :

من ترى يحمل الآن آثام هذا الرجوع الثقيل
المغني الذي طاف يبحث للحلم عن جسد يرتديه
ام هو المدعي ان حلم المغني تجسد فيه
هل خدعت بملكك حتى حسبتك صاحبي المنتظر
أم خدعت بأغنيتي
وانتظرت الذي وعدتك به ، ثم لم تنتصر
ام خدعنا معا سراب الزمان الجميل ؟

* * *

الآن تكتمل دورة في مسيرة هذا الجيل بكل ما طرأ عليها من طرق جانبية . الحلم كان واحدا . وكان مدعي التجسيد واحدا وكان المغني واحدا كذلك . ولكن تفرقت السبل ، وها هي تعود الى نقطة الملتقى دون ان يرجع احد منا بغير بعض المعرفة وبعض الوعي والكثير من الاحزان ، واليقين في ضرورة استمرار المسيرة .

* * *

جزء هنا من القاهرة ، وجزء من دمشق ، وجزء من بيروت او من عدن ، وجزء من بغداد او المغرب ، وثمة اجزاء اخرى من كل مدينة في دمشق ، في نفس الايام . المهرجان في الموصل والمؤتمر في دمشق ، دون امكانية للقاء . وبعض درس « الرجوع الثقيل » يقول ، بل ان الدرس كله يقول ان بعض اسباب نكباتنا كان هو هذا الانقسام. العراق يشتعل حماسا بسبب الخليج . ونحن نفكر في سيناء . ودمشق تبحث عن منفذ الى الجولان . وشعب فلسطين ضاعت منه فلسطين كلها . وجنوب لبنان يهدده طوفان الصهيونية تهديدا فعليا . ونحن نذبح بعضنا بعضا بالنصال او الرصاص او الكلمات . لا يكسب من « المذابح » الا من يبيعون جلودنا ، والا من يشترونها منهم !

الموصل — سامي خشبة